الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأثرها على الحركة العلمية والفكرية في القرن (11) الهجري في المغرب

د.طارق الفاطمي[1]

المقدمة

مما لا شك فيه أن الحركة العلمية والفكرية في كل الأقطار وفي مختلف الأزمنة تتأثر بالظروف السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، ويظهر ذلك خاصة في غزارة أو ندرة الإنتاج الفكري، مدا وجزرا تبعا لهذه الظروف في مجالات المعرفة وحقولها المبحوث فيها والمثيرة للاهتمام. وقيمة المعرفة والإبداع المنتج في كل مرحلة إنما تقاس بقدرته على حل إشكالات العصر وتلبية حاجات الناس، لا سيما في القضايا الملحة والنوازل الملمة. يضاف إلى ذلك أن خصوصية المعرفة الشرعية تقتضي الاجتهاد في ضوء مقاصد الشريعة.

وغاية هذا البحث اختصار أهم الأحداث السياسية التي أرخت بظلالها على البيئة الاقتصادية والاجتماعية في القرن الحادي عشر الهجري، وإبراز انعكاساتها على الابداعات الفكرية والمعرفية في هذه المرحلة، باعتماد مصادر مختلفة في مقدمتها كتب النوازل الفقهية والرحلات والإجازات والفهارس إلى جانب كتب التاريخ العام التي اهتمت بالتأريخ للمرحلة.

مشكلة البحث: إن التأريخ للحركة العلمية والثقافية في كل مرحلة من المراحل التي عاشتها الأمة يقتضي دراسة الظروف المحيطة والمؤثرة في هذه الحركة واتجاهاتها وقضاياها واهتماماتها، إذ هي العوامل الأساس والفاعل الأهم في الحركة المعرفية. فكيف تأثرت الحركة العلمية والفكرية والثقافية بالتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في القرن الحادي عشر في المغرب؟ وكيف استمر وانتشر العلم في ظروف عرفت تقلبات وأزمات كبرى وفترات فراغ سياسي؟

1 مفتش التعليم الثانوي، وباحث في العلوم الإسلامية وقضايا التربية، والتكوين، الأكاديمية الجهوية مراكش

فرضيات البحث: الحركة العلمية والفكرية والثقافية تنتعش وتزدهر في ظل الاستقرار السياسي والاجتماعي والنمو الاقتصادي، غير أنها تتأثر بظروف الأزمات والتحولات فتصير لها قضايا وإشكالات تبحث فيها وتحليلها وتنظر في حلها.

الأبحاث السابقة في الموضوع: لقد اهتمت الدراسات الأكاديمية بهذه المرحلة التاريخية والإنتاج العلمي والمعرفي فيها ومما وقفت عليها في الموضوع: "جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس" للأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي الجزء الثالث طبع سنة (1972م)، " الحركة العلمية والأدبية بالمغرب على عهد المولى إسماعيل" للأستاذ الدكتور عبد الله المرابط الترغي وهو جزء من رسالته للدكتوراه، ومجموعة من الدراسات أنجزها مجموعة من الباحثين ضمن أعمال الندوة العلمية في موضوع " فاس في تاريخ المغرب" سنة (2008م)، ودراسة نشرتها مجلة آفاق التراث للباحث الجزائري الدكتور الحاج بنيرد بعنوان " الحياة الفكرية والأدبية واللغوية في فاس في القرنين الحادي عشر والثاني عشر- دراسة في عوامل ازدهارها وتطورها-" عدد (83) شهر سبتمبر (2013م).

محاور البحث

وينتظم هذا البحث في ثلاثة محاور عنونت المبحث الأول بالحالة السياسية في المغرب خلال القرن الحادي عشر الهجري، والمبحث الثاني بالحالة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب في القرن الحادي عشر الهجري، المبحث الثالث الحركة العلمية والفكرية بالمغرب في القرن الحادي عشر الهجري.

الحالة السياسية في المغرب خلال القرن الحادي عشر الهجري:

عرف القرن الحادي عشر الهجري في تاريخ المغرب بالمرحلة الانتقالية حيث شهد العديد من التحولات السياسية، والاضطرابات الدامية عاش المغاربة خلالها فترات وصفت بالحالكة والقاتمة كما وقع عليه إجماع المؤرخين[1]. أما الواقع السياسي فلم يختلف كثيرا بين مناطق المغرب، إلا أن الاستثناء الذي عرفته الحواضر الكبرى في المغرب كفاس ومراكش وتطوان ظل حاضرا بالنظر إلى خصوصية الأحداث التي عرفتها هذه المدن، وإلى

1- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي (ص 188-271)، والاستقصاء للناصري (3/6-84)

مكانتها في تاريخ المغرب، وموقعها الجغرافي، وتأثيرها العلمي في بقية المناطق. وسأجعل الكلام عن الحالة السياسية في المغرب، مقسمة إلى مراحل.

المرحلة بين سنة (1040 و1070 هـ): مرحلة الفراغ السياسي التي شغرها العلماء:

عاش المغرب في هذه المرحلة تقلبات كبرى بعد وفاة المنصور السعدي رحمه الله سنة (1012 هـ)، حيث تنازع أبناؤه الحكم، وتمزق المغرب بعده إلى إمارات متناحرة وصار شماله قسما عاصمته فاس وجنوبه قسما آخر عاصمته مراكش. وأطلت الفتن برأسها على حواضر المغرب وبواديه، وطمع الأجانب في احتلاله واستولوا على بعض الثغور وأحكموا السيطرة عليها، فاحتل البرتغاليون الجديدة والعرائش وكادوا يزحفون على سلا لولا مقاومة أبي عبد الله العياشي رحمه الله ومن معه من المجاهدين الصامدين، واحتل الإسبان طنجة وبعض مدن الشمال[1].

غير أن بداية الاستقرار كانت على أيدي العلماء المجاهدين حيث ستشهدت فاس أكبر الحواضر المغربية آن ذاك سنة (1047 هـ) العودة الى حالة الطمأنينة لما استنجد الفاسيون بالعلامة المجاهد أبي عبد الله محمد العياشي (ت 1051 هـ)[2]، فقصده بسلا وفد من علماء فاس وفقهائها وأعيانها وشرفائها ليبايعوه أميرا عليهم ليصلح ذات بينهم، ويعيد الأمن والاستقرار بالمنطقة، وسبب هذه الاستغاثة ما ذكره المؤرخون من الحرب بين أهل فاس وبين الحياينة وشراقة على قنطرة وادي سبو، وقتل فيها من أهل فاس خمسة وأربعون رجلا[3]. وذكر القادري أن أبا عبد الله العياشي قدم فاس ونظر في أمرها، وغزا عرب الحياينة مرارا وأثخن فيهم حتى خضعوا للطاعة[4]، وممن ذكر هذه الوفادة من العلماء الذين عاصروا ذلك وشهدوا عليه، وكان ضمن الوفد الإمام العلامة أبو عبد

1- اختصرت ذلك من نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي (ص 188-271)، والاستقصاء للناصري (6/3-84)

2-ترجمته في نشر المثاني (3/ 1359)، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (6/ 86).

3-ذكر ذلك القادري في نشر المثاني (3/ 1359)، والناصري في الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (6/ 85)

4- نشر المثاني (3/ 1363و1364)، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (6/ 86)، وقد أفرد عبد اللطيف الشادلي الحركة العياشية بدراسة أسماها " الحركة العياشية – حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17م"، في رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط سنة (1975م)، وطبعتها الكلية نفسها سنة (1982م).

الله محمد بن أحمد ميارة الفاسي (ت 1072 هـ)، وقد أثبت ذلك في فاتحة شرحه الصغير على المرشد المعين[1].

واستقرت الأحوال في فاس إلى أن حاصرها أبو محمد الحاج بن أبي بكر الدلائي، واستسلم له أهلها، وبايعوه بعد ما أذعن له أهل مكناس وظهر أمر الزاوية الدلائية[2]، وكثر أتباعها من العلماء والعامة[3]. وفي خمسينيات القرن الحادي عشر ظهر أمر الدولة العلوية واجتمع أمر أهل تافيلات على المولى علي الشريف، وناوشوا أهل الزاوية الدلائية في مواطن عديدة، وكانت الغلبة في كل مرة للدلائيين.

وفي الستينيات من نفس القرن عادت الاضطرابات والقلاقل لتقض مضجع المغاربة وتثبط عزائمهم. وقد وصف أبو سالم العياشي رحمه الله الوضع القائم آن ذاك، وهو يحكي الموانع التي حالت دون رحلته إلى بلد الله الحرام قائلا: "دبت في مغربنا عقارب الفتن، – (سنة 1069 هـ)- وهاجت بين الخاصة والعامة مضمرات الإحن، فانقطعت السبل أو كادت، وهاجت الأرض بأهلها ومادت، فكربت أيأس من بلوغ المرام"[4].

المرحلة بين سنة (1071 و1082 هـ): التدافع السياسي وإكراهات التوحيد

ظهر أمر العلويين وقوي سلطانهم وبسطوا نفوذهم في مناطق المغرب في عهد المولى الرشيد خاصة، وأذعنت له قبائل شرق المغرب الأقصى ودخل فاس بعد مقاومة شديدة من الدلائيين ليتم له القضاء المبرم على الزاوية ويغرب أهلها ويغير معالمها، ويوحد مناطق المغرب بعد ذلك.

1- المرشد المعين (ص 3).

2- سيأتي التعريف بالزاوية الدلائية وعلمائها ودورها العلمي والسياسي في هذه المرحلة.

3- وقع الخلاف في تاريخ دخول الدلائيين إلى فاس اختلافا كبيرا بين من ذكر الخبر فمنهم من قال ان ذلك كان في حياة أبي عبد الله العياشي كالقادري في نشر المثاني (1369/3)، ومنهم من قال أن ذلك كان سنة (1051 هـ) بعد وفات أبي عبد الله العياشي وحصارها ستة أشهر كالناصري في الاستقصا (6/ 86)

4- الرحلة العياشية (1/ 54)

أما حاضرة فاس فرغم مقاومتها لدخول المولى الرشيد وجيشه بداية، إلا أنها استفادت بعد استقرار أمره نهاية، حيث عادت إلى سابق عهدها من الرخاء والطمأنينة والسلام الذي تاقت له وتشوفت إليه[1].

وفي سنة (1084 هـ) وبعد وفاة المولى الرشيد وتولي أخيه المولى إسماعيل الملك في المغرب عادت فاس إلى سابق عهدها من الفتن والبلايا والاضطراب بعد ثورة أبي الربيع سليمان الزرهوني[2]، فحاصرها المولى إسماعيل أربعة عشر شهرا قبل أن يخضع له أهلها بوساطة من علمائها وشرفائها يتقدمهم العلامة الإمام عبد القادر الفاسي رحمه الله، بعد قتال وفوضى شهد بها أبو الحسن الحريشي وذكرها في ((الفتح الفياض شرح الشفا للقاضي عياض))[3]، ولم تذكر تفاصيلها كتب التاريخ حيث قال رحمه الله: " فلقد حلت بنا حادثة، وأحاطت بأرجائنا داهية تفطرت منها القلوب، وتعظمت الخطوب، وكاد الفؤاد منها يذوب، وأظلمت الأرض، وانتشرت الفتنة بالطول والعرض، وذلك حين خالف أهل فاس سنة أربع وثمانين وألف على مولانا إسماعيل نصره الله ابن مولانا الشريف أصلحه الله وأيده وأمد في عمره للمسلمين، فاشتدت بينه وبينهم الحروب وعظمت المصائب والكروب"[4].

المرحلة بين سنة (1085 و1139 هـ)

عرف المغرب استقرارا وعمارا طوال فترة حكم المولى إسماعيل، بعد أن دانت له حواضره وبواديه بالولاء، وتوحدت أرجاؤه على يديه، واجتمعت الكلمة على سلطان واحد بعد عقود من الفرقة والشقاق والفتن التي توالت على المغرب كقطع الليل المظلم. وعبر عن ذلك الناصري بقوله:" كانت أيام أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله على ما

1- مختصر من نزهة الحادي (ص 302-304)، وتاريخ الضعيف الرباطي (ص 46-50)، والاستقصا (7/ 34-35)

2-الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (7/ 47)

3- لقد حصلت بتحقيق الجزء الأول من ((الفتح الفياض)) المتضمن للمقدمة والباب الأول من الشفا شهادة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية من وحدة مناهج الدراسات العلمية للسيرة النبوية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن زهر بأكادير المغرب تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد الكريم عكيوي. وما تزال بقية الأجزاء مخطوطة.

4- مخطوطة ((الفتح الفياض)) [ورقة رقم 15/ ب و16/ أ]

ذكرنا من الأمن والعافية وتمام الضبط، حتى لم يبق لأهل الذعارة والفساد محل يأوون إليه ويعتصمون به، ولم تقلهم أرض ولا أظلتهم سماء سائر أيامه "[1].

ولكن بعد وفاته أسرع أبناؤه إلى الخلاف على الحكم والاقتتال فيما بينهم ليمزقوا المغرب من جديد شيعا وأحزابا متناحرة. وأطلت الفتن برأسها بعدما نسيها المغاربة فترة نعموا خلالها بالأمن والاستقرار الذي سكنت إليه النفوس وتحسنت به الأوضاع.

الحالة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب في القرن 11 الهجري

آثرت الكلام عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية معا للتأثير والتأثر الشديدين بينهما. ولا بد من تخصيص الكلام في البيئة الاجتماعية والأحوال الاقتصادية بمدينة فاس لأنها كانت متميزة من حيث تعدد وتنوع النسيج الاجتماعي المغاير لبقية حواضر المغرب، فضلا عن بواديه، ومكونات المجتمع الفاسي تنقسم إلى فاسيين من أهل العدوتين، ومهاجرين جدد من الأندلس سنة (1016 هـ)، بالإضافة إلى الطائفة اليهودية[2].

وأما الأحوال الاقتصادية فكانت كذلك متميزة من حيث الأنشطة والمهن الممارسة من حرف وتجارة وأشكالهما المتطورة بسبب انفتاح المجتمع الفاسي، وتنوع تركيبته المجتمعية بالنسبة إلى ما عرفته بقية الحواضر المغربية[3]، ومن حيث الأهمية فقد بقيت فاس مركزا اقتصاديا هاما على مر العصور وتعاقب الدول رغم الاضطرابات والفتن، حيث ربطت الشمال بالجنوب والغرب بالشرق، وكان لها في التجارة دور أساس في هذه المرحلة بانفتاحها على السلع الأوربية، كما ظلت محورا اقتصاديا ومعبرا للقوافل التجارية ومركزا للمبادلة بين الشمال وجنوب الصحراء. غير أن الواقع السياسي في القرن الحادي عشر أثر على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، وهو ما تحكيه كتب التاريخ، وتعالجه كتب النوازل والفقه المؤلفة في هذه المرحلة.

1-الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (7/ 99)

2- خصص روجي لوطورنو في كتابه ((فاس قبل الحماية)) للنسيج الاجتماعي في فاس الكتاب الثالث والرابع، فصل فيه الكلام في الموضوعات المتعلقة بالمجتمع الفاسي (1/ 141-308)

3- ذكر تفاصيل الحياة الاقتصادية الفاسية وأنشطتها، وجلب فيها ما لم يورده غيره روجي لوطورنو في كتابه ((فاس قبل الحماية)) حيث خصص للكلام في المجال في ستة فصول من الكتاب الخامس (1/ 399-652).

وتجمع مصادر التاريخ المغربية على أن الأوضاع الاجتماعية عرفت ترديا كبيرا في مرحلة الاضطرابات السياسية حيث انعدم الأمن وانتشر الفساد، ويعبر الإمام أبو سالم العياشي (ت 1090 هـ) عن قسوة ما عاناه المغاربة في هذه الفترات وهو يتحدث عن سنة (1069 هـ) عندما عزم على الرحلة إلى المشرق بقوله: " وأضرم الجوع في سائر الأرجاء ناره، فتولد منه من الفتك والحرابة ما أعلى تفريق الكلمة مناره، وتطاير في كل أفق شراره، وأهان خيار كل قطر شراره"[1].

ويذكر الناصري في ((الاستقصا)) أن ذلك كان بين سنة (1060 هـ) و(سنة 1070 هـ)[2]، حيث وصف الغلاء المفرط وشظف العيش الذي عانت منه كل مناطق المغرب من أقصاه إلى أدناه، وهو ما يدل على أن الأزمة الاقتصادية وتردي الأوضاع الاجتماعية استمر طيلة هذه الفترة من وفاة المنصور السعدي سنة (1012 هـ) إلى قيام الدولة العلوية، واستقرار أمرها على عهد المولى الرشيد سنة (1079 هـ).

وأما عن كتب النوازل فهي أيضا تؤكد الانحرافات والمفاسد الاجتماعية التي ظهرت في المجتمع المغربي جراء فقدان الأمن واضطراب الأحوال السياسية، وأكثر المفاسد التي وردت في بعض النوازل واستفتي فيها العلماء في قضايا الأسرة انتشار التهمة بالزنا والحمل غير الشرعي، والخلافات العائلية بسبب مسائل الإرث، وهي قضايا غالبا ما يرتبط انتشارها وانحسارها في المجتمع الإسلامي بعوامل اقتصادية وأخلاقية.

ومن أغرب المفاسد الأخلاقية والانحرافات العقدية المنتشرة في بعض القبائل والبوادي المغربية ما ذكر في أجوبة أبي محمد عبد القادر الفاسي، من شرب الخمر جهارا بين عوام بعض القبائل وقضاتها[3]، بل وحملهم لقدور ممتلئة منها في المناسبات والأفراح، وترددهم للصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وهم على هذا الحال. وتشهد كتب النوازل أيضا على الاقتتال الواقع بين القبائل واستباحة الدماء، وهتك الأعراض[4].

1- الرحلة العياشية (1/ 54)

2- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (6/ 112)

3- الأجوبة الكبرى لعبد القادر الفاسي (1/ 106).

4- نفسه (2/ 32).

ومما انتشر في هذه المرحلة نتيجة ضعف السلطة المركزية، ما ورد في بعض النوازل من تعامل المسلمين مع الكفار الذين استولوا على بعض المناطق والحصون، ومخالفتهم لفتاوى العلماء، ما يدل على ضعف التدين وغلبة الأطماع والجشع على النفوس، وكذا ما وقع من استرقاق بسبب الفقر والمجاعة[1]، ومن بين النوازل الفقهية التي تؤكد ذلك، وتفيد استقلال بعض التنظيمات المحلية عن السلطة المركزية في عهد السعديين بعد وفاة الملك القوي المنصور الذهبي، سؤال الشيخ يحيى الحِيحِي[2] عما أحدثه أهل البادية بالأطلس الكبير الغربي من الاجتماع، وتعيين أهل الحل والعقد منهم يقال لهم: "إنفلاس" يأخذون على يد الجناة، ويحاربون الفساد، ويعاقبون قطاع الطرق، والغاصبين بعقوبات مالية تسمى "الإنصاف". وأجاب عن سؤاله فقهاء مراكش: أحمد بابا الصنهاجي، وعبد الواحد الركراكي، والقاضي محمد بن عمر، وقاضي الجماعة عيسى بن عبد الرحمن السكتاني، والفقيه القاضي إبراهيم بن يونس. ووضع السؤال من شخصية لها وزنها الرسمي والشعبي على كبار الفقهاء في وقته يدل على خطورة ما آل إليه الوضع حينما تلجأ المجتمعات الجبلية بفعل انتشار الفوضى وانعدام الأمن إلى أن تضع قوانين خاصة حفاظا على أمنها.

الحركة العلمية والفكرية بالمغرب في القرن 11 الهجري.

عرفت الحركة العلمية والثقافية والعلمية في هذه الفترة مفارقة غريبة حيث إنها رغم الظروف العصيبة والتحولات السياسية المتعددة، وحالة الفوضى التي طبعت المرحلة، وقد بينا بعض معالمها في المبحيثين السابقين، والاقتتال على الحكم والتنازع المستمر على السلطة الذي أدى إلى وضع اقتصادي واجتماعي متردٍ جدا في القرن الحادي عشر خاصة، إلا أن الحركة العلمية والفكرية والأدبية ظلت مستمرة، والمطلع على ما أنتج في هذه الفترة إن درسه في معزل عن هذه الظروف، ظن أنه أنتج في مراحل الاستقرار والازدهار.

1- وانظر بحث : فتاوى بعض علماء الجنوب بخصوص نظام " إينفلاس" بالأطلس الكبير الغربي في أوائل القرن السابع عشر. لصدقي علي ءازايكو. ضمن كتاب التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ط 1. (1995م). (ص 135 – 185).

2- نسبة إلى قبيلة حاحة بسوس المغرب.

ونظرا لشساعة الموضوع وإمكانية إفراده ببحوث خاصة كما فعل بعض الباحثين، سأقصر الكلام عن دور الزاوية الدلائية وجامعة القرويين في هذه المرحلة في فاس، وأقف على بعض جهود العلماء في نشر العلم واستمرار الحركة المعرفية والفكرية والأدبية في المجتمع المغربي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري.

الزاوية الدلائية ودورها في إحياء الحركة العلمية والفكرية والأدبية في القرن الحادي عشر الهجري:

لما انتشرت الفتن والقلاقل في المغرب بسبب الاختلاف على الملك والتنازع على السلطة التي عمت أرجائه، صار الناس يبحثون عن ملاذ آمن يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف، فظهرت هجرة معاكسة من الحواضر إلى البوادي، واستقطبت الزاوية الدلائية أعدادا كبيرة من الطلبة في هذه الفترة، بما وفره أهلها من حاجات الوافدين عليها من الأمن والطعام، فتفرغوا لطلب العلم والمعرفة الشرعية.

ووفد على الزاوية علماء وطلبة من كل حدب وصوب، وتكاثرت الأعداد بها وازدحم الناس في طلب الوصول إليها، وذاع صيتها في المغرب بما توفره أيضا من جودة التعليم، حيث برع خريجوها في فنون عديدة واشتهروا بقوة اللغة والبيان والبلاغة والأدب، ويحكى أن عدد مساكن الطلبة المتمدرسين في الزاوية بلغت ألفا وأربعمائة مسكن، وضم كل مسكن طالبين فأكثر[1]. وبلغ أثرها في صيانة العلم وإحيائه في المغرب، وتخريج العلماء أن قيل فيها ما نقله القادري في نشر المثاني: "إن من الجاري على الألسنة قولهم: لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب في القرن الحادي، لكثرة الفتن التي ظهرت فيه وهم: سيدي محمد بن ناصر في درعة، وسيدي محمد بن أبي بكر الدلائي في الدلاء، وسيدي عبد القادر الفاسي بفاس"[2].

وتكونت بالزاوية خزانة ضمت مئات الكتب والنفائس النادرة[3]. وأما العلوم التي كانت تدرس فيها فهي القراءات والتفسير والتوحيد والحديث والفقه وأصوله والمنطق

1- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي لمحمد حجي (ص 74).
2- نشر المثاني (4/ 1640).
3- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي لمحمد حجي (ص 74).

والتوقيت والتصوف[1]. وأما اللغة العربية وقواعدها وعلوم البلاغة فقد بلغت فيها الزاوية شأوا عظيما.

جامعة القرويين وأثرها العلمي والفكري في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري:

في أيام السعديين نظمت الأوقاف، وأنشئ ما سيعرف بنظارة الأوقاف للحفاظ عليها وصيانتها، وجعلت تحت تصرف القرويين للحرص على صرفها في أوجه البر التي حبست لأجلها، وأوقفت لجامعة القرويين نفسها أحباس وأوقاف لإعانة الفقهاء والمدرسين والخطباء والوعاظ وتعليم الصبيان[2].

غير أن الفتن التي عرفها المغرب أواخر عهد السعديين، والمرحلة الانتقالية بعدهم لم تضعف جامعة القرويين ولم يتوقف التدريس بها، بل حافظ علماؤها على الكراسي العلمية، واستمر إشعاعها الفكري والمعرفي داخل المغرب وخارجه. ودليل ذلك أنها خرجت في هذه الفترات علماء نبغوا في عدد من العلوم والفنون الشرعية والأدبية[3]، واشتهروا في الآفاق بتصانيفهم المفيدة، وقصدها طلاب العلم من داخل المغرب وخارجه للتعلم وطلب الإجازات العلمية.

أما في عهد المولى الرشيد فمنذ أيام استقراره الأولى بفاس التفت إلى إنعاش الحركة العلمية والفكرية بجامعة القرويين، وقد ذكر المؤرخون من حرصه على العلم ومجالسة العلماء أنه كان يحضر مجلس العلامة أبي الحسن اليوسي بالقرويين[4]، وشمل اهتمامه إحياء العلم وطلب المعرفة في جميع أنحاء المغرب[5]. وقد زاد إشعاع جامع القرويين

1- نفسه (ص 74).

2- مختصر من كتاب ((جامع القرويين)) لعبد الهادي التازي (3/ 704-709).

3- يرجع في ذلك إلى فهارس المشيخات والإجازات وخاصة الإجازة الكبرى والصغرى لعبد القادر الفاسي رحمه الله وهي مطبوعة متداولة.

4- نشر المثاني للقادري (4/ 1568)

5- يرجع في تفاصيل ذلك إلى الاستقصا للناصري (7/43-44)، وجامع القرويين لعبد الهادي التازي (3/ 716-717).

وتعززت مكانته من جديد، وكثر طلابه وعاد إلى سابق عهده من حمل لواء العلم والفكر في المغرب على عهد المولى إسماعيل[1]. وفي عهده تأسست مدرسة الشراطين بفاس[2].

ومن مظاهر الحركة العلمية والفكرية في هذا العصر ما كان يسأل عنه العلماء أمثال عبد القادر الفاسي رحمه الله (ت 1091 هـ) في أجوبته الكبرى والصغرى، وأبي عبد الله محمد بن الحسن المجاصي (ت 1103 هـ) في نوازله[3]، وأبي الحسن الحريشي نفسه في ((الفتح الفياض)) من قضايا فكرية وعلمية وعقدية ليست من اهتمام العامة، وإنما هي مما أشكل على العلماء وطلبتهم. كالسؤال عن ما أورده أهل السير من القضايا الدقيقة كأولاد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه[4]، والاستفسار عن تأويلات ما أورده الإمام القسطلاني في بعض الآيات القرآنية[5]-[6].وقد أثبت أبو الحسن الحريشي رسالة علمية في الفتح الفياض وأورد نصها كاملا بعث بها الحاج علي بن محمد بركة التطواني[7]، يتساءل فيها عن حقيقة الخلاف الواقع في البراق الذي أسري عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن مظاهر نشاط الحركة العلمية في القرن الحادي عشر الذي وصفت جل مراحله بالحالكة عند جل من كتب في تاريخ المغرب، تصدي المرأة للفتوى والإقراء والتعليم،

1- ممن أورد تفاصيل ذلك الأستاذ الدكتور عبد الله المرابط الترغي في بحثه الموسوم ب ((الحركة العلمية والأدبية بالمغرب على عهد المولى إسماعيل)) وهو جزء من رسالته للدكتوراه، وجامع القرويين لعبد الهادي التازي (3/ 717-718).

2- نشر المثاني للقادري (4/ 1566)

3- ورد على أبي عبد الله المجاصي أيضا العديد من الأسئلة المشكلة في قضايا فكرية وعقدية كالسؤال عن التفضيل بين الأنبياء والرسل والملائكة.

4- الأجوبة الكبرى لعبد القادر الفاسي (1/ 14)

5- نفسه (1/ 18)، وقد ورد السؤال عليه في قضايا أخرى (2/ 66-69-72-74-79)

6- يرجع لتفاصيل أخرى في رسالة بعنوان: ((أثر الفكر الصوفي في النوازل الفقهية بالمغرب الأقصى - القرنين الحادي عشر والثاني عشر نموذجا-)) مع تحقيق كتاب النوازل الفقهية للشيخ عبد الرحمن الحائك. رسالة لنيل الدكتوراة للباحث: مصطفى أغزيل. إشراف: عبد السلام شقور ومحمد الفقير التمسماني. (2007/2008). جامعة عبد الملك السعدي. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان.

7- أبي الحسن علي بركة التطاوني.تاريخ تطوان (1/ 347 – 383)، ونشر المثاني (2/ 104)، وهدية العارفين (1/ 773). وفهرس الفهارس (1/ 119).

ودليل ذلك ما ورد في نوازل عبد القادر الفاسي من سؤال عن " جواز تولي المرأة الإمامة أو المشيخة؟ فأجاب بكون النساء في عهده كن يجتمعن على بعض السيدات ويشيخنهن ويتصدرن للقراءة والإفتاء"[1].

وتصدى العلماء في هذه الفترة للعديد من الانحرافات والمفاسد الاجتماعية والخلقية والفكرية والعقدية، وانبروا لمحاربتها؛ من قبيل ما انتشر من فتن بعض الصوفية، واتهامهم بالبدعة، وحث الناس على لزوم السنة والتأصيل للممارسات العبادية[2]، بل والدعوة إلى معاقبة طوائف منهم حكم عليها بالكفر لاستحلالها المحرمات، كالطائفة العكازية[3] التي انتشر أتباعها في القبائل[4]، كما حاربوا الفوضى الواقعة في الفتوى وأنكروا على بعض الجهال المتصدين للإفتاء.

1- ذكر ذلك د. عبد الهادي التازي في كتابه ((جامع القرويين)) (3/ 718)، وأحال في ذلك إلى الأجوبة الكبرى لعبد القادر الفاسي، غير أنني لم أجده في أجوبة الفاسي الكبرى ولا الصغرى أيضا.

2- الأجوبة الكبرى لعبد القادر الفاسي خاصة في الجزء الأول منها، ونوازل المجاصي حيث أجابوا عن عدد من هذه الانحرفات.

3- تعود نشأة هذه الفرقة إلى أحمد بن عبد الله المنزلي، وكان من أتباع أحمد بن يوسف الملياني (ت 927 هـ) من شيوخ الصوفية في المغرب وهو من تلامذة الشيخ أحمد زروق (ت 899 هـ). يرجع لتفاصيل معتقادات الفرقة ونشأتها وتطورها إلى دراسة الأستاذ لحسن اليوبي ((الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية)).

4- يرجع لتفاصيل ذلك إلى نوازل أبي عبد الله المجاصي.

الخاتمة

كان للعلماء الدور الكبير في إنقاذ المغرب من الفوضى والاستعمار المبكر، حيث دافعوا عن الثغور وعبؤوا الناس لذلك وحرضوهم، وحاصروا العدوا عسكريا واقتصاديا، وحرصوا على استمرار المنابر العلمية وفي مقدمتها القرويين، والزاوية العياشية والدلائية اللتان كانتا منبعا للعلم والتربية والجهاد، فكان للعلماء الدور الأعظم في استقرار الأوضاع مدة تزيد عن الخمسين سنة في استقلال تام عن أي سلطة سياسية، بل كانوا هم السلطة السياسية في الفترات الانتقالية ومراحل الفراغ السياسي، وتبعهم الناس طوعا، واتخذوهم أسوة وقدوة.

ليس هناك تناسب مطرد بين المراحل التاريخية العصيبة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا والتراجع والضمور العلمي والمعرفي والثقافي، فقد تكون فترات المحن الجماعية سبب الإنتاج العلمي والمعرفي المتميز على المستوى الفردي والجماعي، فتجعل العلماء والمثقفين والمفكرين أمام محك المشكلات والقضايا الواقعية والنوازل المعقدة في مختلف مجالات الحياة، ويكونون مدوعين إلى إيجاد الحلول العملية التطبيقية الناجعة، وهو ما حدث في تاريخ المغرب في القرن الحادي عشر الهجري.

إن ما أنتج في هذه الفترة بحاجة إى أن يفرد بدراسات علمية وبحوث خاصة، حيث برز علماء عرفوا بالتجديد والابداع وتجاوزوا التكرار والاجترار والتقليد وفي مقدمتهم أبو سالم العياشي وعبد القادر الفاسي وأبو الحسن اليوسي رحمهم الله.

دراسات في الفلسفة